مقدمة

بذلت جهود علمية كثيرة لدراسة تاريخ مدينة الإسكندرية وآثارها وحضارتها وطبوغرافيتها فى العصور اليونانية الرومانية القديمة، ثم وقفت هذه الجهود عند العصر الإسلامى الوسيط، بل وتخطته إلى العصور الحديثة، وإذا تكرم واحد من الباحثين وأشار إلى هذا العصر فإنه يغمطه حقه ويتهمه ظلمًا بأنه كان عصر تدهور وتأخر واضمحلال - وهى تهمة لا تتفق والحقيقة فى شىء.

وقد عنيت بهذا الموضوع وهو «تاريخ الإسكندرية فى العصر الإسلامى» منذ سنوات طويلة، وكنت دائمًا أتساءل وأنا أقلب المراجع العربية المختلفة: ألم يكتب العرب تاريخًا خاصاً لهذا الثغر الهام فى العصر الإسلامى؟.. وهم لم يتركوا مدينة من مدنهم الكبرى أو الصغرى إلا وأرخوا لها، وبين أيدينا الموسوعات والكتب الكبيرة أو الصغيرة عن تاريخ بغداد، ودمشق، وحلب والموصل، وبخارى، وأصفهان، ومكة، والمدينة، والفسطاط، والقاهرة والفيوم.. الخ.. الخ، وبعضها مطبوع، وبعضها لا يزال مخطوطًا ينتظر من يعنى بتحقيقه ونشره، وبعض ثالث مفقود أو كالمفقود ينتظر من يبذل الجهد الجاد للبحث عنه فى زوايا المكتبات الخاصة التى لم يكشف عن كنوزها بعد..

وظللت أبحث حتى وقفت إلى نصوص تشير إلى كتاب كبير فى جزأين ألفه فى القرن السابع الهجرى (١٣م) عن تاريخ الإسكندرية وَاحِدٌ من أبنائها وعلمائها وهو: منصور بن سليم، ورجعت إلى كتب التراجم وكتب التاريخ المطولة أحاول أن أستزيد معرفة بهذا العالم والمؤرخ السكندرى وحياته ومؤلفاته، ووجدت له ترجمات مختصرة فى (شذرات الذهب لابن العماد)[١] (وطبقات الشافعية الكبرى للسبكى)[٢] و(تذكرة الحفاظ للذهبى)[٣] و(منتخب المختار للسلامى)[٤] و (السلوك للمقريزى)[٥] و (النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى)[٦] و (والإعلان بالتوبيخ لمن ذم

---

(١) ج ٥، ص ٣٤١.

(٢) ج ٥، ص ١٥٧.

(٣) ج ٤، ص ٢٤٩ وانظر أيضًا: (نفس المؤلف: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، مخطوطة دار الكتب المصرية، وفيات سنة ٦٧٣ هـ، ص ٣٩٦).

(٤) نشر عباس العزاوى، بغداد، ١٩٣٨م، ص ٢٢٩ - ٢٣١).

(٥) ج ١، ص ٦١٩.

(٦) ج ٧، ص ٢٤٧.

التاريخ للسخاوى)[1] و (وكشف الظنون لحاجى خليفة)، وهى فى جملتها تُعرِّف بالرجل تعريفًا موجزًا، فتذكر أن أبا المظفر وجيه الدين منصور بن سليم بن منصور بن فتوح الهمذانى الإسكندرى، محتسب الإسكندرية، وأنه ولد فى ثامن صفر سنة ٦٠٧ هـ، وأخذ عن الكثيرين، ورحل إلى الشام والعراق، واعتنى بالحديث والفقه والرجال والتاريخ، وجمع لنفسه معجمًا، وكتب تاريخًا كبيرًا لمدينة الإسكندرية[2] وتوفى فى الحادى والعشرين من شوال سنة ٦٧٣ هـ.

وكانت فرحتى كبيرة عندما علمت بوجود تاريخ لمدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى كتبه عالم من علمائها، وزاد فى فرحتى ويقينى بوجود الكتاب أننى عثرت على فقرات كثيرة نقلها المؤرخون المصريون فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين عن هذا المؤلف.

وانطلقت أقلب فهارس المخطوطات فى المكتبات المختلفة، ولا أبالغ إذا قلت أننى صحت فرحًا عندما وجدت أن فهارس المخطوطات العربية بمكتبة أيا صوفيا باستانبول تشير إلى وجود نسخة خطية من هذا الكتاب فى هذه المكتبة فى جزأين تحت رقمى ٣٠٠٣ و٣٠٠٤.

كان هذا منذ نحو عشرين عامًا، فبادرت فى الحال بالكتابة إلى صديقى المستشرق الألمانى ريتر Ritter – وكان يقيم حينذاك فى استانبول.. أستوضحه حقيقة هذه المخطوطة، وأرجوه أن يصور لى نسخة منها.

وبقدر ما كانت فرحتى عند العثور على الإشارة إلى وجود نسخة من الكتاب، بقدر ما كان حزنى وألمى عندما أتانى رد الأستاذ ريتر وفيه يقول إن الكتاب – للأسف الشديد – مفقود، وأن الكتاب الموجود مكانه والذى يحمل رقمه هو «قصة الإسكندر الرومانى وسياحاته ودخوله فى الظلمة باحثًا عن ماء الحياة».

ولكننى لازالت أعتقد أن الكتاب كان موجودًا فى المكتبة إلى وقت قريب، أى إلى الوقت الذى طبعت فيه فهارس الكتب العربية الموجودة فى مكتبة أيا صوفيا، ثم امتدت إليه الأيدى، ولازال الأمل يداعبنى أن نوفق يوما ما للعثور عليه، وعند ذلك نحصل على وثيقة هامة جدًا توضح لنا تاريخ الإسكندرية ومعالمها فى القرون السبعة الهجرية الأولى، لأن الكتاب كتبه واحد من أهليها وعلمائها، وقد تولى الحسبة بها وقتًا ما.

---

(١) ص ١٢٢.

(٢) ذكر السبكى والذهبى أنه كان فى مجلدين، وذكر السخاوى أنه كان فى أربع مجلدات، انظر أيضًا:
Brockelmann: *Geschichte der Adrabichen Litteratur. Supp. Uol. I. P.P. 753-574.*
و (جمال الدين الشيال: أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى، القاهرة ١٩٦٥م، ص ١١٤ – ١١٥).

ويضاف إلى هذا الكتاب كتاب ثان ذو فائدة كبيرة للباحثين فى تاريخ الإسكندرية فى العصر الإسلامى، غير أنه أقل أهمية من سابقه، لأنه لم يكتب أصلا للتأريخ للإسكندرية، وإنما للتأريخ لحادثة خاصة، وهى غزوة القبارصة الصليبية للمدينة فى أواخر القرن الثامن الهجرى (٧٦٧م = ٣٦٥هـ).

غير أن المؤلف التزم فى مؤلفه هذا طريقة غريبة، فهو يبدأ الحديث عن بعض أحداث الغزو، ثم يستطرد منها إلى تناول موضوعات كثيرة من فقه وتاريخ وأدب وتصوف، فيغرق فى ذكر التفاصيل التى تمس هذه الموضوعات إلى أن ينسى وينسى القارئ معه الموضوع الأصيل، ثم يتذكر ما كان بصدده فيعود ثانية إلى استئناف الحديث عن وقائع الغزوة وأحداثها، إلى أن ترد فى حديثه كلمة توجب الاستطراد فيعود إليه[1].

وهو فى حديثه الأصيل عن الغزوة القبرصية وفى استطراداته الكثيرة المستفيضة يورد معلومات وفيرة قيمة عن تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى بعامة، وفى عصر الأشرف شعبان بخاصة، لا نجد لها شبيهًا أو مثيلاً فى أى مرجع آخر، وقد أفدنا من هذا الكتاب كثيرًا عند كتابة الفصل الخاص بتاريخ الإسكندرية فى عصر الأشرف شعبان من كتابنا هذا..

مؤلف هذا الكتاب هو محمد بن القاسم النويرى السكندرى المالكى، فهو واحد من أهل المدينة وعلمائها[2] فى القرن الثامن الهجرى (١٤م)، وعنوان كتابه: «الإلمام بالإعلام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الإسكندرية، فى سنة سبع وستين وسبعمائة وعودها إلى حالتها المرضية»..

والكتاب لحسن الحظ موجود وإن كان لا يزال مخطوطًا، وتوجد نسخة من الجزء الأول منه فى مكتبة برلين تحت رقم ٩٨١٥ (وفى دار الكتب المصرية صور شمسية منها) وتوجد نسخة خطية من الجزء الثانى فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٤٢، كما توجد نسخة خطية أخرى من الكتاب مكتملاً فى خزانة «بانكى بور»[3] بالهند تحت رقم ٢٣٣٥ وهى أكثر قيمة من النسختين الأوليين، لأنها كتبت فى القرن الثامن الهجرى فهى قريبة العهد من عصر المؤلف.

---

(١) التفت إلى هذا الأسلوب فى تأليف الكتاب وأشار إليه (السخاوى: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ١٢٢) فقال عند حديثه عند هذا الكتاب: «ولمحمد بن قاسم بن محمد النويرى السكندرى المالكى صفة الكائنة العظمى التى وقعت للفرنج فى أول سنة سبع وستين حين ملكوها ونهبوا أموالها وأسروا نساءها ورجالها فى ثلاث مجلدات، ولكنه استطرد فيها من شىء إلى شىء، فإنه ابتدأ بصفة فتحها، واستمر بحيث كانت الواقعة فى جانب ما ذكر كالشامة».

(٢) انظر ترجمة المؤلف فى: (ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤، ص١٤٢.

(٣) انظر: (السيد هاشم الندوى: تذكرة النوادر من المخطوطات العربية، حيدر أباد الدكن، ١٣٥٠هـ) و (فهرس دار الكتب المصرية، ج ٥، ص ٣٨، ج ٨، ص ٢٤).

ويسر فى أن أشير هنا إلى أن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية قد عهد إلىّ أخيرًا بتحقيق ونشر هذا الكتاب، وأرجو أن أوفق إلى إخراجه قريبًا..

وقد كتبت عن «فضائل الإسكندرية» رسائل كثيرة، تشير المراجع إلى ثلاث منها، اثنتان موجودتان، والثالثة مفقودة – أما الاثنتان فهما:

(أ) فضائل الإسكندرية لأبى على الحسن بن عمر بن الحسن الصباغ[1] وتوجد منها نسخة خطية فى المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم ٦٦٣.

(ب) رسالة فى فضل ثغر الإسكندرية لجلال الدين السيوطى[2] وتوجد منها نسخة خطية فى مكتبة الجامع الأزهر بالقاهرة تحت رقم١٣٧٤.

أما الرسالة الثالثة المفقودة فعنوانها «فضائل الإسكندرية» كذلك ومؤلفها هو خلف بن على ابن محمد بن أحمد بن داود بن عيسى المغربى التروجى السكندرى[3] المتوفى سنة ٨٤٤ هـ.

هذه هى المؤلفات العربية القديمة التى كتبت للتأريخ لمدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، وهى جميعًا – فيما عدا رسالتى ابن الصباغ والسيوطى – لمؤلفين سكندريين،وقد بذلت جهودًا كبيرًا فى تعقبها وإحصائها ودراستها منذ عنيت بتتبع تاريخ المدينة فى هذا العصر.

وقد زاد اهتمامى بتاريخ مدينة الإسكندرية منذ نقلت إلى جامعتها فى سنة ١٩٤٣م، فأقبلت على كتب التاريخ المطولة وكتب التراجم وكتب الجغرافية والرحلات أجمع ما فيها من مادة مبعثرة وأعيد ترتيبها فى نسق جديد، تمهيدًا لإخراج كتاب جديد يرد للمدينة اعتبارها ويلقى الأضواء الجديدة على تاريخها ونشاطها ومعالمها وحضارتها فى العصر الإسلامى المفترى عليه.

وكان باكورة ما أخرجته فى هذا الميدان فصلا من كتاب عن تاريخ الإسكندرية أخرجته غرفتها التجارية فى سنة ١٩٤٩م، وكان موضوع هذا الفصل «الإسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى».

هذا وقد نشر الأستاذ اتيين كومب بعض صفحات من هذا الكتاب فى المجلد الثالث من مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، انظر:

(Combe: *Le Texte de Nuwairi sur l'Attaque d'Alexandria par Pierre I Lusignan. Bulletin of the Faculty of arts. Farouk I Uniuersity – Alexandrie – vol. III, 1934.).*

(١) و (٢) انظر: (السخاوى: الإعلان بالتوبيخ، ص ١٢٢) و

(Rosenthal: History of Muslim Historiography. P. 383)

وترجمته العربية للدكتور صالح أحمد العلى.

(٣) انظر ترجمته فى السخاوى: الضوء اللامع، ج ٣، ص ١٨٤).

وفى سنة ١٩٥٢م كتبت بحثى الثانى عن «الإسكندرية، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر» ونشرته فى المجلة التاريخية المصرية مزودًا بسبع عشرة خريطة توضح هذا التطور.

وكان كل ما فى هذين البحثين المركزين جديدًا يكتب لأول مرة، ووراء كل كلمة فيه جهد ضخم طويل، وظل البحثان مصدرًا لكل من أراد الكتابة فى تاريخ الإسكندرية فى العصر الإسلامى، وظهرت بعدهما كتب ومقالات تناولت هذا الموضوع، اعتمد أصحابها كل الاعتماد على هذين البحثين، ينقلون عنهما مع تقديم أو تأخير ومع إيجاز أو تفصيل، بل لقد كان البعض يشير فى حواشى كتاباته إلى المراجع التى أخذتُ عنها وأثبتتها فى بحثى بما يشعر رجوعه إليها واطلاعه عليها، مع علمى علم اليقين أنه من العسير عليه بل لعله من المستحيل أحيانًا أن يتوفر له رؤية هذه المراجع أو الإفادة منها، وكان بعض هؤلاء الكتاب يتكرم فيشير أحيانًا إلى بحثيى، وكان بعض آخر ينقل عنهما دون أن يكلف نفسه عناء الإشارة إليهما، وهذه كلها أمور تتصل بموضوع الأمانة العلمية، وهو موضوع لم تستقر له قواعد بعد فى مجتمعنا وبين المشتغلين بالعلم والتأليف فيه.

وإذا كان هذان البحثان قد طويا فى كتاب الغرفة التجارية ومجلة الجمعية التاريخية، وأصبح من العسير على القارئ العادى الحصول عليهما والإفادة منهما، فى حين أصبحت الكتب والكتيبات التى ظهرت بعدهما واعتمدت عليهما فى متناول كل يد، وإذ كانت قد توفرت لدى مادة جديدة يمكن أن تضاف إلى ما سبق كتابته، فقد بدا لى أنه من المفيد أن أعيد كتابة الموضوع من جديد بحيث يشمل القديم والجديد، وكانت الحصيلة هذا الكتاب الذى أقدمه اليوم بين يدى القارئ..

وقد ظهر لى فى العام الماضى كتاب آخر عن «أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى» قدمت فيه دراسات تفصيلية لسير نخبة من قادة الفكر فى الإسكندرية فى هذا العصر، وقلت فى مقدمة هذا الكتاب أننى التزمت المنهج الذى اتبعه المؤرخون العرب القدامى عند التأريخ للمدن العربية الإسلامية، فهم كانوا يفردون قسما من كتبهم للتأريخ للمدينة ذاتها، ثم يخصصون الجزء الأكبر للترجمة للنابغين من الرجال الذين أنبتتهم هذه للمدينة أو للنابهين ممن زاروها أو أقاموا بها ردحًا من الزمن.

وأنا حاولت أن أفعل ما فعلوا، فقدمت فى الكتاب الأول تراجم مستوفاة لبعض أعلام الإسكندرية، ثم خصصت هذا الكتاب للتأريخ للمدينة، ومع هذا فأنا أرى أننى لم أقل الكلمة

الأخيرة فى الموضوعين، فلازالت لدى حصيلة كبيرة من المادة التاريخية عن رجال الإسكندرية، وعن تاريخ المدينة، أرجو أن أوفق إلى استيفائها فى طبعات أخرى أو فى كتب جديدة قادمة.

وهذه – فيما يرى القارئ – محاولة منى لإلقاء أضواء جديدة على تاريخ مدينة من أهم وأكبر المدن العربية الإسلامية التى لعبت دورًا كبيرًا فى تاريخنا القومى، فكانت ثغرًا ورباطًا، وكانت مركز نشاط حربى واقتصادى كبير، ومركز إشعاع ثقافى وحضارى أكبر خلال العصر الإسلامى، فهى وإن كانت قد تنازلت عن مكانتها التى كانت تشغلها فى العصرين اليونانى والرومانى كعاصمة أولى لمصر، فإنها لم تفقد هذه المكانة عندما أصبحت عاصمة مصر الثانية فى العصر الإسلامى، ولم يكن الدور الذى لعبته فى العصر الإسلامى فى ميادين الحرب والبحرية والتجارة والاقتصاد والفكر والثقافة أقل شأنًا من الدور الذى لعبته فى هذه الميادين فى عصورها القديمة.

اللهم منك التوفيق، وبك العون، فألهمنا الخير دائمًا، ووفقنا للعمل الصالح ولخدمة وطننا العربى وتاريخه المجيد.

الإسكندرية
١٧ شعبان سنة ١٣٨٦هـ
٣٠ نوفمبر سنة ١٩٦٦م

جمال الدين الشيال

تاريخ
مدينة الإسكندرية
فى العصر الإسلامى

المقدمة:

الإسكندرية فى العصور القديمة

١ – تخطيط المدينة.

٢ – فى العصر اليونانى.

٣ – فى العصر الرومانى.

٤ – فى العصر البيزنطى المسيحى.

١ – تخطيط المدينة

فى سنة ٣٣٢ ق.م. اتجه الإسكندر الأكبر بجيشه المظفر نحو مصر، ودخل العاصمة ممفيس، وزار أول ما زار معبد الإله «بتاح» حيث توج ملكًا على البلاد، ثم زار بعد ذلك معبد «آمون» فى واحة سيوة، وهناك نودى به ابنًا للإله «زيوس أمون»، فقد اعتبره المصريون مخلصًا لهم من نير الفرس وظلمهم.

وفى عودته من سيوة مر بقرية صغيرة على شاطئ البحر كانت سكنًا لنفر من الصيادين ورعاة الأغنام، فأعجبه موقعها، وبدأ يفكر جديًا فى اختيار هذا الموقع لبناء مدينة كبيرة تحمل اسمه؛ تلك هى قرية «راقودة» أو «راكوتيس».

وكان الإسكندر موفقًا فى اختياره، فللموقع مزايا جمة تجعله صالحاً لإنشاء مدينة كبيرة وميناء ممتاز، فهو شريط من الأرض ضيق طويل، يشرف عليه البحر من الشمال، وتحده من الجنوب بحيرة مريوط؛ وعلى مقربة من الشاطئ تجْثم جزيرة فاروس بصخورها كحاجز طبيعى يحمى المدينة المنتظرة، ويحمى السفن الشراعية عند دخولها إلى هذا الميناء الطبيعى وخروجها منه.

أما بحيرة مريوط فى الجنوب فكانت تصل المدينة المرتقبة بالنيل بواسطة ترعة «شيديا» القديمة التى كانت تقوم مقام ترعة المحمودية الحالية أو الخليج الناصرى فى العصور الوسطى؛ وعن هذا الطريق أيضا تستطيع المدينة أن تتصل بالبحر الأحمر – طريق التجارة الهام إلى الشرق الأقصى – وهذا يؤهل المدينة لأن تكون ميناءً صالحًا لنقل تجارة الهند والشرق إلى بلاد اليونان والعالم الخارجى، وهو ما كان يهدف إلى تحقيقه الإسكندر الأكبر بعد أن اتسعت إمبراطوريته وأصبحت تضم إليها هذه الأقطار المتباعدة من القارات الثلاث: أوربا وآسيا وأفريقيا؛ والإسكندرية ستكون مدينة على البحر الأبيض المتوسط قريبة من شواطئ هذه القارات الثلاث المطلة على هذا البحر، وتكاد تتوسط أملاك الإسكندر جميعًا.

وميزة أخرى جعلتها تتفوق على موانئ مصر الشمالية الأخرى: رشيد ودمياط والفرما، ذلك أن التيارات المائية فى شرقى البحر الأبيض المتوسط تخضع هذه الموانئ لعاملى التآكل والإرساب وتفقدها بذلك عامل الصلاحية، أما الإسكندرية فموقعها فى الغرب ينجيها من هذا كله.

وقد عهد الإسكندر إلى مهندسه «دينوقراطيس Deinocratis» بتخطيط المدينة، فاختار لها النمط اليونانى المعروف وقتذاك فى تخطيط المدن، وقسمها إلى شوارع مستقيمة تتقاطع فى زوايا قائمة، وساعدة على ذلك كون الرقعة المخصصة لإنشاء المدينة مستطيلة الشكل؛ وقد بدئ بتخطيط المدينة فى عهد الإسكندر، غير أنها لم تتم إنشاء ولم تتخذ عاصمة إلا فى عهد البطالمة[1].

وقد خضعت الإسكندرية منذ إنشائها حتى اليوم إلى ما تخضع له مدن العالم الكبرى، فارتفعت بها الجهود أحيانًا حتى كانت أكبر مدينة فى العالم، ثم انحط بها الزمن أحياناً أخرى وأصابها الخراب والدمار حتى كادت تكون نسيًا منسيًا؛ وضاعت مع هذه العوامل أو تلك معالم المدينة القديمة حتى قيض الله لها بعض الباحثين المحدثين، فراحوا ينقبون عن آثارها، ويتتبعون معالمها، ونتيجة لهذه الجهود الموفقة أصبح من الممكن وصف المدينة القديمة وصفًا – إن لم يكن دقيقًا – فهو أقرب ما يكون إلى الدقة التى ننشدها.

والفضل الأكبر فى تعريفنا بالمدينة القديمة ومعالمها يرجع إلى المهندس المصرى الكبير محمود الفلكى باشا، فقد عهد إليه الخديوى إسماعيل فى سنة ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م) بدراسة طبوغرافية المدينة ورسم خريطتين لها: إحداهما لتبيان معالمها القديمة فى العصرين اليونانى والرومانى، والثانية لتبيان معالمها الحديثة كما كانت وقت رسمها، أى فى عصر إسماعيل، وقد أجاب محمود بك (باشا فيما بعد) الدعوة ورسم الخريطتين؛ وهما حتى اليوم من أوثق المراجع[2] لدراسة طبوغرافية المدينة فى العصرين القديم والحديث.

ونحن – اعتمادًا على خريطة الفلكى باشا، وعلى ما كتبه شرحًا لها[3]، وعلى الأطلس التاريخى للمدينة الذى نشره «مسيو جونديه Jondet»، وعلى ما كتبه «مسيو برتشيا Breccia»[4] – مدير المتحف اليونانى الرومانى السابق – عن المدينة، نوجز فيما يلى وصف المدينة وأهم معالمها البارزة كما كانت فى العصرين اليونانى والرومانى.

---

(١) انظر المقالات الآتية، ففيها تفاصيل إضافية عن الإسكندرية فى عصرها الأول: زكى على: (الإسكندرية، تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة)، بحث نشر فى مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول (الإسكندرية)، العدد الثانى، ١٩٤٤م، العدد الرابع، ١٩٤٨م. و (الإسكندرية فى عصر البطالمة والرومان)، بحث نشر فى كتاب: «الإسكندرية» الذى أخرجته غرفة الإسكندرية التجارية فى سنة ١٩٤٩م.

(٢) انظر مقدمة:

Jondet (Gaston): *Atlas Historique de la Ville et des Ports d'Alexandrie.*

Le Caire, 1921. (Mémoires Présentés a la Société Sultanieh de Geographie, tome 11.).

(3) Mahmoud El-Falaky Bey *(Memoire sur l'Antique Alexandrie) Copenhague, 1872.*

(4) Breccia *(Alexandria ad Aegyptum) Bergame, 1914.*

٢ – فى العصر اليونانى

لم يشهد عصر الاسكندر غير تخطيط المدينة وإقامة بعض المبانى، أما عصرها المزدهر فهو عصر البطالمة، فقد بقيت ممفيس وهى العاصمة وقتًا ما فى عهد بطليموس الأول بعد استقلاله بمصر، وإليها نقل جثة الإسكندر، وبها دفنها، ثم بدا له أن يتخذ الإسكندرية عاصمة لملكه الجديد، فانتقل إليها، ونقل إليها جثمان الإسكندر، وكان يطلق على هذا الجثمان اسم «سوما Soma» ثم حُرف اللفظ فيما بعد إلى «سيما Sema»، وفى عهده وفى عهد بطلميوس الثانى تم إنشاء المدينة وأقيمت معظم المؤسسات الهامة.

كانت الإسكندرية إذن فى العصر البطلمى ممتدة من الشرق إلى الغرب على شكل مستطيل فى هذا الشريط الضيق الموجود بين بحيرة مريوط من الجنوب والبحر الأبيض المتوسط من الشمال، وتنقسم إلى شوارع مستقيمة متوازية تتقابل مع الشوارع الممتدة من الشمال إلى الجنوب فى زوايا قائمة، ويتخلف عن تقاطعها مربعات صالحة لإقامة المبانى والبيوت عليها؛ وكانت تمتد على جانبى كل شارع من الشوارع الهامة سلسلة من البوائك والعقود ذات الأعمدة والتماثيل لتزيين هذه الشوارع، ولحماية المارة من وهج الشمس.

وكان أهم الشوارع – تبعًا لتحقيقات الفلكى باشا شارعين:

= ولمن يريد التوسع فى البحث أن يرجع إلى المراجع الآتية:

– الدكتور إبراهيم نصحى، مصر فى عصرالبطالمة، جزءان، القاهرة ١٩٤٦م.

– محمد مسعود، المنحة الدهرية فى تخطيط الإسكندرية، الإسكندرية،١٣٠٨ هـ

– على مبارك باشا، الفصل الكبير الذى كتبه عن الإسكندرية فى (الخطط التوفيقية الجديدة، الجزء السابع كله).

– تقى الدين أحمد بن على المقريزى، الفصل الكبير الذى كتبه عن الإسكندرية فى (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ١، ص٢٣٢ – ٢٨٣، طبعة النيل، ١٣٢٤هـ).

– ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى)، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج ٥، ص ١١٦ – ١٢٦، بولاق، ١٣١٠ هـ

– السيوطى، حسن المحاضرة، ج ١ ، ص ٣٦ – ٤٢.

– ياقوت، معجم البلدان، مادة «إسكندرية».

– فؤاد فرج، الإسكندرية، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩٤٢م.

- A.M. de Zogheb: *Etudes sur l'ancienne Alexandrie, Alex. 1910.*
- Tarn (W.W.): *Hellenistic Ciuilisation, London, 1930.*
- Enc. Islam. Art: *Alexandria.*
- Jones (A.H.M.): *The Greek City. Oxford, 1940.*

– أحدهما الشارع الكانوبى[1] ويمتد من شرق المدينة إلى غربها، وعرضه مائة قدم، وفى نهايته من الشرق باب الشمس[2]، وفى نهايته من الغرب باب القمر.

– والثانى شارع «السيما»[3]، ويقطع السابق فى منتصفه تقريبًا، ويمتد من شمال المدينة إلى جنوبها.

وكانت بقية الشوارع موازية لهذين الشارعين وتحمل أسماء أفراد من الأسرة المالكة؛ وقد كشف الفلكى باشا فى حفائره عن سبعة شوارع طولية كانت تمتد من الشرق إلى الغرب، وعن أحد عشر شارعًا عرضيًا كانت تمتد من الشمال إلى الجنوب، وذكر أن هذه الشوارع جميعًا كانت مرصوفة بالبازلت الأسود أو الأصفر.

وكانت المدينة مقسمة إلى أحياء خمسة، سميت بالأحرف الهجائية الأولى فى اللغة اليونانية (ألفا، بيتا، جاما، دلتا، ابسيلون)، وأهمها أحياء ثلاث:

١ – الحى الملكى فى شرق المدينة، وكان يحده على وجه التقريب شارع السيما من الغرب، وحى اليهود من الشرق، وطريق كانوب من الجنوب، والطرف الشرقى من الميناء الشرقية ورأس لوكياس (السلسلة) من الشمال؛ وكانت تقوم فيه القصور الملكية تحيط بها الحدائق الغناء على مرتفعات من الأرض تتيح لها الإشراف على الميناء والبحر.

وفى هذا الحى أيضًا كانت تقوم «دار الحكمة أو الأكاديمية Museum»، والمكتبة الكبيرة، والمسرح؛ وفى ناحيته الغربية بنى معبد «القيصريون Caesareum»[4]، أمرت ببنائه الملكة كليوباترة السابعة تكريمًا لزوجها أنطونيوس، ولكنه تم بناء بعد فتح الرومان لمصر تكريمًا للإمبراطور أغسطس. وعند مدخل هذا المعبد أقيمت مسلتان عرفتا فيما بعد باسم «مسلتا كليوباترة»، وقد ظلتا قائمتين فى مكانهما – بعد زوال المعبد – حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى[5]، تشرفان على الميناء الشرقية عند محطة الرمل الحالية، وموقعهما واضح فى كل الخرائط التى رسمت للإسكندرية حتى عهد الحملة الفرنسية.

---

(١) مكانه الآن شارع فؤاد الأول وامتداده فى شارعى سيدى المتولى وإسحاق النديم.

(٢) هو باب رشيد أو باب القاهرة كما كان يسمى فى العصور المختلفة.

(٣) مكانه الآن شارع النبى دانيال.

(٤) كان موقع هذا المعبد فى المكان الواقع بين عمارة يحيى باشا أمام محطة ترام الرمل الحالية، والكنيسة المرقسية للأقباط والكنيس الإسرائيلى.

(٥) نقلت إحدى هاتين المسلتين إلى إنجلترا سنة ١٨٧٧م، ولا تزال قائمة حتى الآن على ضفة نهر التايمس بمدينة لندن؛ ونقلت الثانية إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٧٩م، وهى إلى الآن قائمة فى «سنترال بارك» بمدينة «نيويورك».

وفى الجنوب الغربى من هذا الحى أقيم قبر الإسكندر (Sema) فى الشارع الذى حمل اسمه - كما يرجح معظم الباحثين - وحول قبر الإسكندر أقام البطالمة قبورهم فى المكان المعروف حينذاك بالبانيوم (كوم الدكة الحالى)، وقد ذكر «استرابون» أن هذا النهد من الأرض كان أكثر مواقع المدينة ارتفاعًا وأنه كان يصعد إليه بواسطة سلم حلزونى، وأن من يعتليه كان يستطيع أن يشرف من قمته على كل أنحاء المدينة.

وإلى الشرق من البانيوم كانت توجد دار المحكمة ويليها الجمنازيوم، وهو الملعب الكبير الذى كان يطل على طريق كانوب.

٢ - وإلى الشرق من هذا الحى الملكى كان يقوم حى «دلتا» وهو حى اليهود، وبه مقابرهم، فقد كانوا يكونون فى العصر اليونانى والرومانى جالية كبيرة لها خطرها فى الحياتين السياسية والاقتصادية.

٣ - وفى الجنوب الشرقى من المدينة - حيث كانت قرية راكوتيس القديمة - كان يقوم الحى الوطنى[1]، وفيه يسكن الأهلون؛ وفى هذا الحى كان يقوم معبد السيرابيوم، وهو معبد عظيم أقامه البطالمة على تل مرتفع يصعد إليه بسلم ذى مائة درجة، وكانت تحيط به الأبهاء والأروقة الفسيحة، تزينها الأعمدة الضخمة والتماثيل الجميلة، وقد أنشأه البطالمة فى أوائل عهدهم ليكون مقرًا للعبادة الجديدة التى أنشئوها، وهى عبادة «سيرابيس»، وكانت مزيجاً من العبادتين اليونانية والمصرية القديمة، وذلك لتحقيق أهدافهم التى كانت ترمى إلى العمل على اختلاط المصريين واليونانيين وخاصة فى الديانة، ولهذا اختاروا أن يقام هذا المعبد فى الحى الوطنى حيث يسكن الأهلون؛ وكان يقوم فى هذا المعبد تمثال ضخم للإله «سيرابيس»، كما أنشئت فيه فيما بعد مكتبة صغيرة؛ وبالقرب من السيرابيوم أنشئ معبد أنوبيس «الأنوبيون»، وبجانبه مقبرة للحيوانات المقدسة.

وكان يحيط بالمدينة سور ضخم ذو أبراج وحصون وأبواب كثيرة، كان أهمها: باب الشمس فى الشرق، وباب القمر فى الغرب.

ومن المرجح أنه بدئ فى بناء الأسوار فى عهد الاسكندر ثم أتمها البطالمة، وزاد فيها وفى تحصينها الرومان بعد ذلك؛ وهذا السور هو الذى كان يحدد المدينة المأهولة، وكان يبدأ غرباً من نهاية طريق كانوب، ويمتد محاذيًا شاطئ البحر إلى رأس لوكياس شرقًا، ثم ينحدر جنوباً إلى أن يتلاقى وترعة الإسكندرية، ثم يسير محاذيًا لها إلى أن يتصل بالنقطة التى بدأ منها، فى

(١) منطقة كوم الشقافة الحالية، وما يحيط بها من أحياء وطنية.

شكل مستطيل تقريبًا، وقد كشف الفلكى باشا عن أجزاء من هذه الأسوار القديمة، ويتبين من دراسة هذه الأجزاء أن عرض أساساتها كان خمسة أمتار، وأنها بنيت من الأحجار المأخوذة من محاجر المكس.

أما خارج السور شرقًا وغربًا فكان رمالا ممتدة غير مأهولة بالسكان تتخللها أشجار النخيل، وإنما كان يوجد فى غربى المدينة وخارج الأسوار مقبرة المدينة (فى المنطقة بين الشاطبى وكامبو تشيزارى الحالية).

وإلى الغرب من هذه المنطقة أيضًا (فى حى الإبراهيمية الحالى) عثر على مقبرة بها رفات المتطوعة فى الفرق الأجنبية بالجيش البطلمى، وإلى الجنوب منها كان يوجد ميدان كبير لسباق الخيل كان يسمى «الهيبودروم» (بجوار نادى سبورتنج الحالى)، ثم تتصل الرمال بعد ذلك إلى أن تصل إلى مدينة كانوب القديمة (أبو قير الحالية تقريبًا) التى كانت تقع عند مصب الفرع الكانوبى.

وكانت المدينة تطل على البحر مباشرة، والمياه تفصل بين شاطئها وبين جزيرة «فاروس» فبنى فى العصر البطلمى رصيف حجرى طويل يصل الشاطئ بالجزيرة، وكان طول الرصيف سبعة «ستاد»، ولهذا كان يسمى باليونانية «هيبتا ستاد»[1]، وكان عرضه وقت إنشائه لا يزيد على ٣٠ مترًا.

وكان إنشاء هذا الرصيف عملا موفقًا، فقد خلق للمدينة مينائين بدلا من ميناء واحد:

الميناء الشرقى، ويحدده من الغرب «الهيبتا ستاد»، ومن الشرق رأس لوكياس، وكان يسمى الميناء الكبير أو الميناء القديم، وهو الذى كان يستعمل طوال العصر البطلمى وجزءًا من العصر الرومانى.

والميناء الغربى ويقع إلى الغرب من رصيف «الهيبتا ستاد»، وكان أقل استعمالاً من الميناء الشرقى، ولم يصبح له المكانة الأولى إلا فى أواخر العصر الرومانى عندما اتسع مدخل الميناء الشرقى، وضاق تبعًا لذلك مدخل الميناء الغربى ولهذا أصبح يسمى بالميناء الجديد.

وكان يوجد فى داخل هذا الميناء الغربى ميناء آخر صغير مقفل من جميع الجهات، ويسمى «كيبوتوس»، أى الصندوق المقفل،وكانت تصله ببحيرة مريوط قناة ملاحية صغيرة.

---

(١) كانت نهاية هذا الرصيف جنوبًا تقع على بعد مائة متر تقريبًا إلى الشمال الشرقى من كوم الناضورة الحالى، أما نهايته من الشمال فكانت فى الجنوب من جزيرة فاروس حيث يقع شارع أبو وردة الحالى، وبالقرب من مصلحة الموانى والمنائر.

وكان يوجد في الجنوب الشرقي من الميناء الشرقي، وبالقرب من الشاطئ ومن رأس لوكياس، جزيرة صغيرة، هي جزيرة «انتيرودوس» وقد انخفضت هذه الجزيرة في العصور الوسطى. وأصبحت تغطيها المياه؛ وكان لهذه الجزيرة أهمية خاصة، فقد أقيم عليها قصر من القصور الملكية يطل على ميناء ملكية كانت خاصة لاستعمال الأسرة المالكة وحدها.

وعلى رأس لوكياس (السلسلة حاليًا) كانت تقوم بقية القصور الملكية ومما يستوجب الإشارة أن هذه الرأس كانت في العصور القديمة غيرها اليوم فقد كانت أعرض بكثير[1]، ثم انتقصت العوامل المختلفة من أطرافها – وخاصة الزلازل المتتابعة – غير أن إنشاء رصيف «الهيبتا ستاد» كان له أكبر الأثر فيما أصاب رأس لوكياس والميناء الشرقي من تغيير، فقد عملت الأمواج بعد إنشاء هذا الرصيف على إرساب الطمي حوله، وعلى النحر أو الأكل في الجانب الآخر وهو رأس لوكياس. ونتيجة لهذا التآكل اتسع مدخل الميناء الشرقي مع مرور الزمن اتساعًا كبيرًا، فهو اليوم غيره وقت إنشاء المدينة.

أما جزيرة «فاروس»، فكانت تعتبر بموقعها الممتاز الخط الأمامي للدفاع عن المدينة، وكانت نهايتها الشرقية تشرف على مدخل الميناء الشرقي، وعلى هذه النهاية أقيمت المنارة القديمة العظيمة، وسميت باسم الجزيرة نفسها «فاروس» ثم حرفت بعد ذلك إلى «فار» أو «فنار».

وكانت هذه المنارة تتكون من أدوار ثلاثة، الأول مربع، والثاني مثمن والثالث مستدير، وارتفاعها جميعًا ١٢٠ مترًا، وكان يحيط بالدور الثالث ثمانية أعمدة تحمل قبة ضخمة، في داخلها مصباح كبير يرسل أشعته ليلاً ليضيء السبيل للسفن الوافدة على الميناء، وكان يعلو هذه القبة تمثال ضخم من البرونز يمثل إله البحر «بوسيديون»، ويقال إن ارتفاعه كان نحو سبعة أمتار[2].

---

(١) كان عرضها قديمًا أكثر من كيلومتر، وهي الآن لا تزيد على ٣٠ مترًا.

(٢) كانت منارة الإسكندرية تعد في القديم إحدى عجائب الدنيا، لهذا كانت أبرز ما يلفت أنظار زائري المدينة، وقد كتب عنها كثيرون من المؤرخين والجغرافيين والرحالة، انظر مثلاً ما ورد عنها في ابن الفقيه (كتاب البلدان ٧٢)؛ وابن رسته (الأعلاق النفيسة، ص ٧٨، ١١٨)؛ وابن حوقل (كتاب المسالك والممالك، ص ٩٩)؛ وابن خرداذبة (المسالك والممالك، ص ١١٥)، والأدريسي، (نزهة المشتاق، ص ١٣٩ – ١٤٠)؛ والمقدسي (أحسن التقاسيم، ص ٢١١)، وهذه جميعًا كتب مطبوعة يمكن الرجوع إليها؛ وفي رحلة ابن رشيد المعنونة (ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة، ج ٣، ص ٢٠) وصف طيب للمنارة، والرحلة لا تزال مخطوطة ونسخها محفوظة في مكتبة الأسكوريال؛ وتوجد من بعض أجزائها صور شمسية في مكتبة البلدية بالإسكندرية؛ ولعل أدق وصف وصلنا للمنارة هو ما كتبه أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي المالكي الأندلسي الذي زار الإسكندرية في القرن السادس الهجري وذلك=

وكانت بحيرة مريوط تحد المدينة من الجنوب، وهى بحيرة داخلية عذبة المياه، وكانت تصلها بالفرع الكانوبى ترعة «شيديا» القديمة التى كانت تصب فى البحر وفى ميناء «كيبوتوس» الداخلية؛ وكان يتفرع منها فرع يسير على وجه التقريب فى مجرى ترعة الفرخة الحالية، ويخترق المدينة ليصب فى الميناء الشرقى؛ ومصورات المدينة فى العصور الوسطى تبين فروعًا أخرى صغيرة لهذه الترعة كانت تتخلل المدينة لإيصال المياه الحلوة إلى مختلف أنحائها، وتشير المراجع إلى أن هذه الفروع كانت قنوات تحتية تحمل الماء إلى صهاريج البيوت، وذكر علماء الحملة الفرنسية أنه كان بالمدينة وقت وجودهم بها حوالى ٣٠٠ صهريج صالحة للاستعمال، وقد كشف الفلكى باشا أثناء قيامه بحفائره فى سنة ١٨٧٢م عن٧٠٠ صهريج منها.

= فى كتابه (ألف باء، المطبعة الوهبية، ١٢٨٧ هـ)؛ وقد كتب المغفور له الأمير عمر طوسون بحثًا بالفرنسية معتمدًا على هذا الوصف، وعنوانه:

- Toussoun (Omar): *Description du Phare d'Alexandrie d'aprés un Auteur Arabe du XII. Siécle (Bull S.R. d'Arch. d'Alex. No. 30, Alexandrie. 1935)*

وانظر أيضًا:

Combe (Et.) *De la Colonne Pompée au Phare d'Alexandrie, dans: (Bull. S.R. d'Alexandrie, No. 34 Alexandrie, 1940).*

٣ - فى العصر الرومانى

فى سنة ٣٠ ق.م احتل أوكتافيوس أوغسطس مدينة الإسكندرية، ومنذ تلك السنة فقدت مصر استقلالها، وأصبحت ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية؛ ومنذ تلك السنة أيضًا اتضعت مكانة الاسكندرية؛ حقيقة لقد ظلت الإسكندرية عاصمة لمصر، ولكن فرق كبير بين أن تكون عاصمة لدولة مستقلة وبين أن تكون عاصمة لولاية تابعة لدولة أخرى.

ومع هذا فقد ظلت المدينة تحتفظ بمكانتها، واضطرد نموها، وأقيمت فيها فى هذا العصر منشآت كثيرة جديدة، ولكنها أصيبت خلال هذا العصر بمحن كثيرة كان لها أثر كبير فى تخريب بعض مبانيها، وتغيير بعض معالمها وخاصة فى أواخر هذا العصر الرومانى عندما انتشرت المسيحية فى مصر، وفى عاصمتها الإسكندرية بوجه خاص.

والذى نلاحظه أن شكل المدينة العام لم يتغير كثيرًا فى هذا العصر، لهذا سوف لا نشير هنا إلا إلى المعالم الجديدة التى أقيمت فى العصر الرومانى، وأهمها:

١ - معبد القيصريون:

وهو بناء مخضرم لأنه شهد العصرين، فقد بدأت بناءه الملكة كليوباترة السابعة تكريمًا لزوجها أنطونيوس، ثم أكمل بناؤه بعد فتح الرومان لمصر تكريما للإمبراطور أوغسطس؛ وقد بنى هذا المعبد على مساحة كبيرة أمام محطة الرمل الحالية فى المنطقة الواقعة بين عمارة يحيى باشا وبين الكنيسة المرقسية للأقباط والكنيس اليهودى؛ وقد وصفه المؤرخ اليهودى «فيلون Philo » فى منتصف القرن الثانى بقوله: لا يوجد فى العالم بأسره مثل هذا الحرم المقدس. وتبدو معالمه واضحة جلية عند مدخل الميناء، ولا يخطئه الإنسان لعظم حجمه».

وأمام هذا المعبد أقامت كليوباترة المسلتين الشهيرتين اللتين أحضرتهما من معبد عين شمس؛ وفى سنة ٣٥٤م، وفى عهد الإمبراطور البيزنطى «قسطنطينيوس» أحال المسيحيون هذا المعبد كنيسة، وظل اليعاقبة والملكانيون يتنازعون على ملكيته إلى أن أصابه الحريق فى سنة ٩١٢م.

ولهذا المعبد فى عهديه الوثنى والمسيحى، وللمسلتين المقامتين أمامه أهمية خاصة، فقد كانت جميعًا من معالم المدينة البارزة التى ظهرت واضحة فى أوصاف المؤرخين والرحالة، وفى مصوراتهم التى رسموها للمدينة فى العصور الوسطى؛ ومن حسن الحظ أن ظلت المسلتان باقيتين فى مكانهما القديم إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فكانتا من المعالم الهامة التى

أعانت الباحثين على دراسة طبوغرافيـة المدينـة وتحديـد مواقـع شـوارعها ومبانيـها ومنشـآتها القديمة.

٢ - مدينة نيكوبوليس:

بناها الإمبراطور أغسطس شرقى المدينة على شاطئ البحـر فـى المنطقـة الواقعـة بـين شـاطئ مصطفى باشـا وجليمونوبولـو، وسماهـا «نيكوبوليـس» أى مدينـة النصـر وذلـك تخليـدًا لذكـرى انتصاره على جيوش كليوباترة وأنطونيوس، ونيكوبوليس تعتبر فـى الحقيقـة ضاحيـة عسـكرية أكثر منها مدينة، فقد كانت مقرًا لإقامة الجيش الرومانى فحسب.

٣ - عمود السوارى:

حوالى سنة ٢٩٧م قامت فى مصر ثورة شاملة ضد الحكم الرومانى، وكانت هذه الثورة أخطـر ما تكون فى مدينة الإسـكندرية، فـأتى إليـها الإمـبراطور دقلديـانوس بنفسـه، وظـل يحاصرهـا ثمانية أشهر طوالا إلى أن خضعت وسلمت وقد حـاول دقلديـانوس بعـد دخولـه الإسـكندرية أن يسترضى الأهلين ويقربهم إليه فأمر بتوزيع العطايا والخبز عليـهم، وبعـد عودتـه إلى رومـا أراد «بوستيموس» وإلى مصر الجديد أن يقيم نصبًا تذكاريًـا لزيـارة الإمـبراطور المدينـة، ليكـون رمـزًا لاعترافها بجميله عليها وعلى سكانها، فأقام هـذا العمـود الضخـم المرتفـع الفـارع فـى ارتفاعـه داخل معبد السيرابيوم، ونقش على قاعدته من الناحية الغربية هذه الجملة: «تذكار من مدينـة الاسكندرية، أقامه الحاكم «بوستيموس» للإمبراطور دقلديانوس الذى لا يقـهر، اعترافـاً يفضلـه عليها» ويقال إنه أقام فوق هذا العمود تمثالاً كبيرًا لهذا الإمبراطور، وأن هذا التمثـال سـقط مـع الزمن.

والعمود منحوت من قطعـة واحـدة مـن حجـر الجرانيـت الأسـوانى، ويبلـغ ارتفاعـه وحـده ٢٠,٧٥ مترًا، كما يبلغ ارتفاعه إذا أضيفت إليه القاعدة والتـاج ٢٦,٨٥ مـترًا، وهـو فـى أسـفله أعرض منه فى أعلاه، فإن قطره من أسفل ٢,٧٠ مترًا، ومن أعلى ٢,٣٠ مترًا.

وقد سماه الأوربيون - فى كتبهم - خطأ - باسم «عمود بومبـى»، كمـا سمـاه المصريـون فـى العصر العربى باسم «عمود السوارى».

وكان هذا العمود لضخامته وارتفاعه موضع إعجاب كل من زاروا الإسكندرية وكتبوا عنها فى العصور القديمة والوسطى. وبقاء هذا العمود فى مكانه الذى أقيم عليه أول ما أقيم أفاد الباحثين كثيرًا عند إعادة تخطيط المدينة، شأنه فى ذلك شأن كثير من معالم المدينـة البـارزة التـى ظلـت كما هى - رغم تعاقب السنين - إلى وقت قريب، كمسلتى كليوباترة، والسور، وكـوم الديمـاس (كوم الدكة)، وكوم الناضورة والمنارة.. الخ.

٤ – فى العصر البيزنطى المسيحى

كانت الإسكندرية عاصمة كبرى فـى العـهد البطلمـى، كمـا كـانت الميناء الأول فـى البحـر الأبيض المتوسط، تأوى إليه السفن من كـل موانئ هـذا البحـر تحمـل إليـها أصنـاف البضـائع والطرف، وتنبعث الأنوار من منارتها لتهدى هذه السفن وتجذبها إلى شواطئ مصر، كمـا كـانت المدينة تضج فى الداخل بألوان النشاط التجارى والعلمى والثقافى، فأسواقها تنتعش بأجنـاس البشر من التجار ورجال العمل والمال، وردهات متحفها وغرفات مكتبتها وأبهاء معابدها تضيـق بالعلماء والفلاسفة والأدباء ورجال الفكر.

ثم انتهى عصـر البطالمـة وانضمـت مصـر إلى الدولـة الرومانيـة، وتراجعـت الإسـكندرية عـن مكانتها الأولى قليلاً، فقد غدت عاصمة لولاية بعد أن كانت عاصمة لدولة كبيرة مستقلة، ولكـن عناصر التقدم ظلت كامنة فى كيانها وفى نفوس المصريين من أبنائها، ولهـذا لا نلبـث أن نـرى المدينة فى العصر الرومانى المتأخر – أى العصر البيزنطى – تقفز إلى الأمام لتتخذ مكان الصـدارة ثانية، وتصبح محط أنظار العـالم وسـبب القلـق للدولـة الحاكمـة، وكـانت عدتـها فـى هـذا أن احتضنت دينًا جديدًا فرعته وعملت على نشره وحمايته.

ففى أحد أيام سنة ٤٥م، أشرقت الشمس على المدينة وهى تستقبل فيمن تستقبل من روادهـا كهلاً رقيق الحال رث الثياب ذا لحية كثة، جاء يسـعى إليـها ماشـيًا علـى قدميـه مـن مدينـة قورينا عاصمة إقليم برقة المجاورة، ودخل هذا الرجل الغريب من باب القمر، ودلف إلى شوارع الإسكندرية يرتادها، وقادته قدماه إلى حواريها الضيقة وأزقتـها الوطنيـة التـى تزدحـم بـالفقراء والمساكين من أهلها، فلما أنهكه التعب التمس مقعدًا عند إسكافى فقير رآه منهمكًا فـى خصـف النعال وإصلاحها، ودار الحديث رقيقًا بين الرجلين، ثم امتد وطال، وكـان ذلـك إيذانـًا بعقـد أواصر الصداقة بينهما، ويالها من صداقة! فقد فتحت فى تاريخ الإسكندرية ومصر، بـل وفـى تاريخ العالم صفحة جديدة.

كان هذا الرجل الملتحـى هـو مرقـس بشير المسـيحية فـى مصـر، وكـان هـذا الإسـكاف هـو «أنيانوس» أول بطارقة الكنيسة المصرية، وكان هذا الدين السماوى الجديد هـو المسـيحية التـى انتشرت فى الإسكندرية، ثـم فـى ربـوع مصـر كلـها فـى سـرعة عجيبـة، دهشـت لهـا الدولـة الرومانية، ودهش لها العالم أجمع.

ولم يكن انتشار المسيحية فى مصر بهذه السرعة أمرًا غريباً، فقد كانت فى مصر بالذات الأسباب المهدة لهذا الانتشار، لأن العقائد الوثنية المصرية فى العصر الفرعونى كانت فيها أشباه ونظائر كثيرة لمعتقدات المسيحية، والأمثلة على ذلك كثيرة، فالمصريون القدماء عرفوا الوحدانية التى دعا إليها إخناتون، والوحدانية أساس الدين المسيحى بل وكل الأديان السماوية الأخرى، وفكرة الثالوث لها شبيه فى الثالوث المصرى القديم الذى كان يجمع بين إيزيس وأوزوريس وحوريس؛ وفكرة العماد قريب منها الغسل بالماء المقدس الذى تتكرر صوره على جدران المعابد الفرعونية.

وسرعان ما انتشرت المسيحية فى مصر، وأصبحت الإسكندرية مقرًا لأول كنيسة منظمة لها كيانها وتقاليدها وكهنوتها، وغدت بذلك عاصمة دينية لها شأنها، وظهر فيها عدد كبير من رجال الفكر المسيحى من أمثال: اكليمنضس السكندرى، وأريجانوس الفيلسوف الأفلوطينى، ولم يكد يحل القرن الثانى للميلاد حتى عادت إلى المدينة زعامتها الفكرية التى عقدت لها ألويتها فى القديم عند إقامة المتحف والمكتبة.

غير أن انتشار المسيحية لم يكن سهلاً ميسرًا، وإنما لاقى المسيحيون الأول من أهل المدينة أصناف العذاب وألوان الاضطهاد، وخاصة فى عهد الإمبراطور دقلديانوس، ولكن هذا العذاب لم ينل من عزيمة السكندريين والمصريين، بل زادهم قوة وإصرارًا على التمسك بعقيدتهم إلى أن كتب لهم ولسكان الإمبراطورية النصر أخيرًا حين احتضنت الدولة الدين الجديد، وأعلن الإمبراطور قسطنطين المسيحية دينًا رسميًا للدولة فى سنة ٣١٣م.

وانتقل المسيحيون من مرحلة النضال إلى مرحلة الدراسة، وبدأت تظهر بينهم أوجه للخلاف فى تفسير أمور الدين، ونشأت نتيجة لهذا المذاهب، وكانت الإسكندرية باعتبارها مركزًا من أكبر مراكز المسيحية أول ميدان ظهرت فيه بوادر هذه المذاهب، فقد نشب الخلاف بين رجلين من رجال المسيحية فى الإسكندرية، هما: أريوس، واثناسيوس؛ وانضم إلى كل منهما أتباع ومؤيدون، وكثر الشغب بين الفريقين، وأصبح لزامًا أن يعمل المسئولون على وضع حد لهذا الخلاف، وبذلك بدأ تاريخ المجامع العالمية - أو المسكونية كما كانت تسمى - وفى مجمع نيقية الذى انعقد فى سنة ٣٢٥م استطاع أثناسيوس أن يدحض براهين رفيقه، وصدر القرار بالقضاء على تعاليم أريوس.

وفى الإسكندرية ولدت نواة حركة مسيحية أخرى كان لها شأنها وخطرها فى تاريخ الديانة المسيحية والفكر المسيحى، بل والعالم المسيحى قاطبة، تلك هى حركة الرهبنة، فقد لجأ نفر من مسيحى الإسكندرية فى القرن الثانى للميلاد إلى وادى النطرون، وعاشوا هناك عيشة الزهد

والعبادة وسط الصحراء، وظلت هذه الحركة تنمو وتنتشر إلى أن كان القرن الخامس الميلادى، وفيه يقال أن عدد الرهبان كان يقدر بحوالى خمسين ألف راهب، وأصبح هؤلاء الرهبان قوة كبرى لها شأنها وخطرها، واعتمد عليهم بطارقة الإسكندرية فى محاربة الوثنية والقضاء عليها، ففى سنة ٣٥٤م استولى الرهبان بقيادة أثناسيوس على معبد القيصريين وأحالوه إلى كنيسة، وفى سنة ٤١٥م - وفى عهد بطرقية كيرلس الأول - هاجم الرهبان الفيلسوفة اليونانية هيباشيا وهى تقود عربتها فى شارع السوما، وقبضوا عليها وقتلوها، فكان ذلك إيذانا بانتهاء عهد الوثنية إلى غير رجعة، وأصبحت المسيحية وحدها هى صاحبة الكلمة فى مدينة الإسكندرية.

كانت هذه الانتصارات المتتابعة سببًا لويل جديد أصاب الإسكندرية ومصر جميعًا، فقد أصبحت الإسكندرية تعتبر زعيمة روحية للمسيحيين، وغدت قبلة الأنظار، مما أثار منافسة بيزنطة عاصمة الدولة الكبرى ومقر الإمبراطور، ونشأ نتيجة لذلك صراع مذهبى بين العاصمتين، أو بمعنى أصح بين الدولة الحاكمة والولاية التابعة، واستعملت الدولة كل أنواع العنف لترغم أنف الولاية والمدينة، واندمج العاملان السياسى والمذهبى أحدهما فى الآخر، وأصبح نضال الإسكندريين والمصريين نضالاً دينيًا وقوميًا فى وقت واحد، وكان المظهر الذى اتخذه هذا النضال هو النزاع على طبيعة المسيح وإرادته الواحدة أو الثنائية.

أما قبط مصر فقد نادوا بفكرة الوحدانية، وأما أهل الدولة فقد أخذوا بفكرة الثنائية، وكالعادة عقد مجمع فى خلقدونية فى سنة ٤٥١م، وأنزل الإمبراطور سخطه وغضبه على وفد مصر ورئيسه ديسقوروس، وجرد هذا الرئيس من منصبه ونفاه، وقضى المجمع بالأخذ بفكرة الثنائية، وهى المذهب المكانى، وبالقضاء على المذهب اليعقوبى المصرى.

ولكن قبط مصر لم يهنوا ولم يخضعوا، بل تمسكوا بعقيدتهم، وناضلوا فى سبيلها نضال المستميت، واتخذ النضال كما قلنا مظهرًا قوميا، فكرهوا كل ما هو بيزنطى، وأصبح لهم بطريقهم الخاص الذى اختاروه لأنفسهم إلى جانب البطرق الملكانى الذى يعينه الإمبراطور؛ ولهذا نجد أن معظم بطارقة الأقباط المتأخرين قضوا حياتهم مشردين فى المنفى أو فى قلب الصحراء، وكان آخرهم للبطريق بنيامين الذى وجده عمرو بن العاص عند فتح العرب لمصر ملتجئًا إلى أحد الأديرة بوادى النطرون، فأمنه عى حياته، وسمح له بالعودة لتولى منصبه.

وفى هذا العصر أخذ المسيحيون يحيلون بعض المعابد الوثنية القديمة إلى كنائس، أو ينشئون الكنائس الجديدة، لتكون مقرًا لعبادتهم، وقد أصبحت هذه الكنائس منذ ذلك الحين من المعالم الجديدة التى تميز المدينة، ونجدها ظاهرة إلى جانب المعالم القديمة فى بعض المصورات التى رسمها الرحالة الذين زاروا الإسكندرية فى العصور الوسطى، وأهم هذه الكنائس:

١ – كنيسة القديس مرقس [1] البشير، وكانت مقامة على شاطئ الميناء الشرقى بالقرب من رأس لوكياس (السلسلة).

٢ – كنيسة القديس أثناسيوس التى أنشئت حوالى سنة ٣٧٠هـ، ويظن أنها كانت تقوم فى المكان الذى بنى عليه جامع العطارين فيما بعد، فإن علماء الحملة الفرنسية ذكروا هذا الجامع باسم «جامع كنيسة القديس أثناسيوس».

٣ – كنيسة القديس ميخائيل، وقد اختلف فى تحديد موضعها، فبعض يقول إنها بنيت على آثار معبد قديم قريبًا من مبنى البلدية الحالى، وبعض آخر يقول إنها بنيت مكان معبد القيصريين الذى حوله القديس أثناسيوس إلى كنيسة مسيحية فى سنة ٣٥٤م فى عهد الإمبراطور قسطنطينيوس.

٤ – كنيسة يوحنا المعمدان، وقد أقيمت فى سنة ٣٩١م على أنقاض معبد السيرابيوم بعد أن هدم المسيحيون معظم مبانيه، ويقال إن هذه الكنيسة ظلت قائمة إلى القرن العاشر الميلادى حيث خربت.

٥ – كنيسة العذراء مريم، وقد بناها بالقرب من الميناء الغربى البطريق تيوناس (٢٨٢م – ٣٠٠م)، وقد اعتبرت منذ بنائها الكنيسة الكتدرائية، وبنيت إلى جانبها دار البطارقة القديمة، وظلت على هذا الوضع مدة طويلة إلى أن تهدمت، وبنى مكانها فى العصر العربى مسجد كبير عرف باسم «الجامع الغربى» لقربه من المياه الغربى، ثم عرف فيما بعد بجامع الألف عمود لكثرة مابه من أعمدة [2].

ولا يفوتنا أن نشير أخيرًا إلى أثر المسيحية فى المنطقة المجاورة لمدينة الإسكندرية، فقد نشأت كما سبق أن ذكرنا – مع قيام المسيحية فى مصر حركة الرهبنة وبنى الرهبان فى قلب الصحراء الأديرة الكثيرة يقيمون فيها للتبتل والعبادة، وقد أقيم فى المناطق المجاورة للإسكندرية عدد من الكنائس والأديرة الهامة، منها الكنيسة العظيمة التى بناها الإمبراطور أركاديوس (٣٩٥م – ٤٠٨م) على قبر أبى مينا فى الصحراء الغربية على بعد عشرة كيلو مترات تقريباً من قرية مريوط الحالية، ومنها معبد أبى صير الذى أحاله المسيحيون فى العصر البيزنطى إلى دير

---

(١) فى سنة ٨٢٨م سرق اثنان من البنادقة جثمان القديس مرقس، ونقلوه إلى مدينة البندقية، انظر: شارل ديل: البندقية، ص ٢١ (الترجمة العربية للدكتورين أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر).

(٢) أغلب الظن أن هذه العمد الكثيرة كان بعضها من أنقاض الكنيسة المهدمة، وأن أكثرها حمل إليه من بقايا معبد السيرابيوم القريب، ويقوم مكان هذا المسجد الآن دير الآباء الفرنسسكان، وهناك على قبر الدكتور شليس داخل المستشفى الأميرى الحالى عمودان من الجرانيت الأخضر يقال انهما نقلا إليه من هذا المسجد بعد أن خرب.

يسكنه الرهبان المسيحيون؛ ومنها الأديرة الكثيرة التى بنيت فى وادى النطرون [1]، وقد خرب معظمها مع مرور الزمن، ولازالت أطلالها تدل على مواقعها، وبقى منها قائمًا ومستعملاً حتى الآن أديرة أربعة هى:

١ – دير البراموس.

٢ – دير أنبا بشوى.

٣ – دير السريان.

٤ – دير أبى مقار.

(١) انظر: (عمر طوسون: أديرة وادى النطرون)، (وعلى مبارك: الخطط التوفيقية، ج ١٧، ص ٤٨ – ٥٥) و (كتاب الرهبنة القبطية الذى أصدرته جمعية مارسينا العجايبى بالإسكندرية، سنة ١٩٤٨م).